فــدوى طوقـــان
النـبـتـةُ التي دلّت عليكِ

بقلم : المتوكل طه

قد أكون من الشعراء الذين لم تلدنا امرأة واحدة، بل اثنتان بالتمـام والكمـال. الأولى حملتنا فأصابها الوحم والمخاض، ونزت خواصرها عرقاً وليناً، والثانيـة، مـا زالت تحملنا على منصة روحها نطوف في النار نبحث عن بذرة النهر، لعلنا نصل إلى أعالي العشب والبرق والبعيد.

لثغنا بحبق أشعارها صغاراً في المدارس، وكبرنا نسعى بـين صـفا شـعرها ومروى نثرها، ولنخطو أولى خطواتنا على أثرها وريحها وهمسها العميق.

لكنّي كنتُ الأكثر حظاً وحظوةً من كل مجايلي، حيث توفّر لي، وأنا منكب على دراسة شاعر فلسطين إبراهيم طوقان، أن تتفتح لي مغارة الكنوز التي كانـت فـدوى تحرس مفاتيحها، وذهبتُ أُقلب مكتبة إبراهيم وأشياءه وأوراقه، فتبين لي أنني وقعـت على وثائق كثيرة، كان أهمها الرسائل التي كان إبراهيم بعثها، وهـو فـي بيـروت، لفدوى، وهي في نابلس، منذ عام ١٩٣٠ حتى ١٩٣٢، الأمر الذي يوضح مـدى أثـر إبراهيم في فدوى، ومدى عصامية هذه الإنسانة التي انطلقت من العدم إلـى الوجـود الهائل.

تخيلوا أن تنهض فدوى المنزوية المحاصرة المحرومة، وتخترق كل هذا الجهل والقيود واليباب، وتنزع أرجلها من وحل التابوهات، وتصبح بـدأب وصـبر وأناقـة، واحدةً من أهم شواعر العرب. إن هذا الجلَد، وهذه العبقرية الفـذّة، تسـتدعي التبـؤر والبحث، والتوقف أمام تلك القدرة الاستثنائية، في تحولها من هيولا مخزونة أو مبددة، إلى أرض راسخة تمور بالخَلْق والإشراق.

إن تنامي هذا النسخ، قد شملنا بنضرته، وأخذنا بسحره المترفّق إلـى رعايتـه، فكانت فدوى، في الأمسيات والندوات تقدمنا على نفسـها لنقـرأ محاولاتنـا، وأمـدنا بالامتلاء والثقة، وعلّمنا كيف يكون تواضع الكبار رافعةً وممراً للقـادمين. ولا أنسـى يوم دخلتْ علينا صباح يوم شتائي قارس، في مقر اتحاد الكتاب بمدينة القـدس، وقـد جاءت من نابلس عبر المواصلات العامة، خصيصاً، كي تسأل بلهفة الوالدة، عن بعض الكُتّاب والأدباء الذين اعتقلتهم سلطات الاحتلال، وعن أحوال عائلاتهم، وقد أخـذتني جانباً، ودست في يدي مبلغاً من المال، دعماً لنشاطات الاتحاد الذي كنت رئيسـاً لـه آنذاك، ومبلغاً آخر مساعدة لبعض عائلات المعتقلين من الأدباء المحتاجين. هذا، فضلاً عن أن حضورها الفاتن النافذ كان يجمل نشاطاتنا الأدبية، والفعاليات الثقافية، بهالة من السطوع والطيب والإبهار.

وكيف لي أن أنسى لطف توجيهاتها المبطّنة بحزم الأم الراعية، بشأن ضـرورة تغليب كل ما هو ثقافي وحيوي على بنية اتحاد الكتّاب الذي كانـت سـطوةُ السياسـة والفضائية تحيله إلى مربع تنظيمي سياسي خالص، ومناداتها بأهمية إشراك الكاتبـات والأديبات في هيئات الاتحاد، لإنقاذ المرأة من صمت القمع التاريخي المتـراكم علـى رأسها وكاهلها.

هذه هي فدوى طوقان التي كُنّا نجدها بجانب الشاعر المرحوم عبد القادر العزة كلما ذهبنا لعيادته وهو على فراش مرض السرطان، تمسك يده بـين يـديها وتحدثـه ويحدثها، وتأخذه من عذابه الطاغي الممض، إلى براري الشعر والجمـال والابتسـام. لهذا فإنني لن أتخلّص، على ما يبدو، من إلحاح بناتي المتواصل وسؤالهن عن "تيتـا" فدوى، ومتى ستزورنا مرة أخرى، ليأخذن صورهن معها إلى أترابهن ومعلماتهن فـي المدرسة، يتباهين بها، وبأنهن جالسنها، وضاحكنها، وحكت لهن قصةً يحفظنها كاسمها الحبيب.

إن هذه اليمامة المستوحشة التي لا تعرف إلاّ أن تحب، تبكي من تواضعها الجم المتفرد، فعندما دخل الأخ الرئيس أبو عمار لأول مرة مدينة نابلس، بعد تحريرها، قال فيما قاله " ... هذه نابلس جبل النار، نابلس فدوى طوقان ..."، فقلت لها : ما المربك في ذلك؟، قالت : "الشهداء وأطفال الحجارة أحقّ مني بالذكر والتكريم".

يا فدوى التي اختلفوا على تحديد تاريخ ميلادك، فكانت نبتةُ الأرض :العكّـوب" هي التي دلّت عليك، لا تبكي، ليس لأنك أُمنا التـي مهرنـا اسـمها علـى وثائقنـا ومجموعاتنا الشعرية، بل لأنّك المرأة التي كسرت الصوتَ الصامتَ وجعلته دوياً مـن الياسمين.

ورفضت العمة والانطفاء، بتفتحك المبكّر البكر في زمنٍ لم يكن للمرأة حـظ أو حضور، ليس في فلسطين فحسب، بل، وفي الامتداد العربي الكبير.

ورفضت العمة وقطعت سنوات طوالا، بدأت منذ الوردة التـي ألقاهـا الولـد المجهولُ، على طريق العودة للبيت طلفةً، إلى انتصابك جبلاً ثالثاً، لتصبح نابلس جبلاً للنار والجسارة والشعر.

وربما لم تترك المقصلةُ التي امتدت منذ وعد بلفور حتى إعادة الانتشار الأخير، أيةَ ندبة في جدار روحك العالية، بقدر ما جعلت المظْلمةَ نصوصاً نهضت مـن تعـب الناس ولحمهم المشظّى، حتى أصبحت تأصيلاً لتاريخنا، ولهفةً للخلاص الكامل، وسكّراً لمرارات الكآبة والموات.

وأتمنى لك يا أُمي دوام الفتوة والبهاء، حتى تشهدي أسوار يبـوس العاصـمة، عالية في رقصات العالم الحر، ولتكون زيارتُك القادمةُ إلى القدس، عند إقامة دولتنـا، تاريخاً مقدساً نضرب به كل التواريخ غير المقدسة، وحتى تعلن خطواتُك في أزقتهـا، أن درب الآلام لن يفضي، هذه المرة، إلى الجلجلة والصلب، وتاج الشوك، بـل إلـى براري الشهد والنماء، ومحبة الإنسان للإنسان.

إن جامعة النجاح الوطنية، التي طالما تردد صوت إبراهيم، في جنباتها "بالثلاثاء الحمراء" و"الشهيد" أو بالسخرية والمعرفة، تحظى اليوم بشرف كبير بتقليـدك شـهادة الدكتوراة، مما يعني اعترافاً آخر بالأهمية التاريخية لقصائدك التي كتـب فـي زمـن ارتبطت به هذه القصائد، فنطقت به وفجرته.

وسيظل صوتُك، يا أمنا، يشهد ولادة شاعرة جاهرت بالحياة والنشيد ... لتقـول إن قلّة أصوات الشاعرات في تاريخنا العربي القديم والحديث، يعني أن ثمة من حملت أجيالاً كاملة من الشعراء، الذين سيتوالدون كالأمواج، ذكوراً وإناثاً، ليواصـلوا، بقـوة الكلام، وخروج النهار المعبأ بالأشجار الصغار، ليس في نابلس فقط أو فلسطين، بـل على شاطئ الإنسانية الرحب.

وعزاء جامعة النجاح أنها في حضرتك الباهية، وعزاؤنا أن الشاعر أكبر مـن الشهادة أو الجائزة أو السنوات القصار.